

الفضاء الروائي : مفهومه و أشكاله

الأستاذة زوزو نصيرة

جامعة محمد خيضر بسكرة - الجزائر

تقديم :

يخترق الفضاء حياة الإنسان، ويحس بكينونته أينما حل، ويلقي بظلاله عليه أينما ولى وجهه. إنه يعيش فيه ومعه، ولا شيء في هذا الكون منفصل عنه ومتحرر من رقبته، ولا وجود لأي كائن دون فضاء يحويه ويلفه، بل هل هناك حياة أصلا دون فضاء؟

والفضاء هو ذاك العالم الفسيح الذي تنتظم فيه الكائنات والأشياء والأفعال، وبقدر ما يتفاعل الإنسان مع الزمن يتفاعل مع الفضاء، بل يمكننا القول: إن تاريخ الإنسان هو تاريخ تفاعلاته مع الفضاء أساسا.⁽¹⁾

إن تعالق الإنسان بفضائه تعالق شديد، ومنذ الأزل ارتبط البشر بالكرة الأرضية؛ بحكم جاذبيتها من جهة، ولأنها الممد الأوح لا استمراريته؛ بما تزخر به من عناصر الحياة من جهة أخرى.⁽²⁾

ونظرا للأهمية التي يكتسيها سنحاول في البدء تحديد مفهوم الفضاء الروائي بخاصة بوصفه موضوع الدراسة؛ و لأن بيان المصطلح هو المدخل إلى كل مسألة هي محل بحث، لنطرح بعد ذلك إشكالياته ثم الأشكال التي اتخذها في الدراسات الغربية.

مفهوم الفضاء الروائي وأهميته :

لقد اشتق الفرنسيون والإنجليز مصطلحي (espace) و (space) من لفظة (spatium) اللاتينية التي تعني في الأصل الامتداد واللامحدود الذي يحوي كل الامتدادات الجزئية المحددة، في حين لم يعرف الإغريق لفظة (الفضاء)، إذ لم تظهر في لغتهم كلمة تدل على (المكان) إنما عرفوا لفظة (Topos) وتعني (موقع).⁽³⁾

وقد يكون إحساس المبدع والفنان دون غيره بالفضاء إحساسا عميقا من هنا كانت علاقة الفضاء بالأدب وطيدة، بل هو المادة الجوهرية للكتابة الروائية على وجه الخصوص؛ إذ لا يخلو أي عمل من استحضار هذا المكون، الذي يعتبر السند الأساس له والملفوظ الحكائي الرئيس المشكل لنسيجه. إنه إحدى هوياته التي لا يمكن إغفالها أو اختزالها، وإلا عدّ العمل ناقصا ومبتورا.

وفي هذا الإطار يقول حسن نجمي: «تكاد كل جملة في الكتابة الروائية تحيل على فضاء معين، أو تستحضر فضاء معيناً مادامت تعبر عن فعل يتم في الوجود، أو تقدم لنا حضوراً ما في العالم، وبهذا المعنى فإن صلة الفضاء بالنص الروائي هي أكثر من وطيدة، نكاد نقول بأن ليست هناك رواية أبداً بلا فضاء». ⁽⁴⁾

فرسم الفضاء مشكل أساس بالنسبة للروائي، ينبجس ضمن تصور ذهني بداءة، ليفرغ على القرطاس، وهنا يتباين الروائيون ويتفاوتون، حين يتفنون في رسم معالمه؛ إبانة عن مقدرتهم الفنية وبراعتهم.

إن معظم الدراسات التي عملت على حقل "الفضاء" شغلت أساسا بالفضاء المعماري والحضري(الفضاء الواقعي، والمادي، والمشخص) والأنثروبولوجي، أما في المجال الأدبي والجمالي، فقد انصبحت الاهتمامات على السرديات من حكاية، ورواية، وقصة قصيرة، أو على الأعمال التشكيلية من نحت وتصوير، أو فنون استعراضية، من مسرح ورقص.⁽⁵⁾

إن الفضاء مرتبط بكل ما هو مجسد ومشخص على وجه الخصوص، ويرى جيرار جنيت(Gérard Genette) بأن كل فن من الفنون يسعى إلى خلق تشخيصه الخاص به، وإذا ركز في الأدب على فضائية اللغة بخاصة، فإنه يتحدث عن الرسم بوصفه فنا فضائيا؛ لما فيه من تشخيص للمساحة، كما يعتبر فن العمارة فن الفضاء بحق.⁽⁶⁾

فالفضاء ليس حكرا على الأدب، إنما هو أداة تتعامل معها يد كل فنان وتعبّر عن أفكارها بآليات متباينة وطرق نشاط مختلفة ومتميزة؛ لتعبّر في نهاية المطاف عن دلالة خطابها.

فالرسم يستعين بقطعة من القماش أو الورق أو واجهة حائطية بوصفها مساحة مكانية ملموسة؛ لصقل المعنى الذي يريده، والنحات يتخذ من الحجارة

مطية لصنع منحوتاته (7) ، وكلاهما يشترك « في توظيف الفضاء لإغناء المضمون وتعميق الإحساس الجمالي بهما» (8)، بل إن ميشال بوتور (Michael Butor) يصرح بتعلق فن الرسم بالأدب، وإن تبدت الصلات بينهما خفية. (9)

وعلى الرغم من كل هذا يبقى الأدب فن الفضاء الأوحده؛ لأنه أصل التخيل؛ فإذا كان قصار فضاءي الرسم والهندسة رسم فضاءات محدودة، فإن الأدب هو فن اللامحدود، حيث إن للأديب أن يصغر من حجم فضاءه أو يكبره، بل له أن يخترق السماء بأفضيته الخيالية، وهذا مالا يمكن أن يتأتى لأصحاب الفنون الأخرى. إن الفضاء الأدبي «عالم دون حدود وبحر دون ساحل وليل دون مصباح، ونهار دون مساء. إنه امتداد مستمر مفتوح على جميع المتجهات وفي كل الآفاق». (10)

لعل العبارة الأخيرة تفصح عن أول تصور للفضاء يمكن أن يعلق بالذهن، وهذا ما يتجلى بحق ونحن نتلفظ بهذه الكلمة (الفضاء) ؟... إنه عالم واسع لا تحده حدود، ولا توثقه مجموعة أماكن، وإن كانت تحويه.. إنه كائن وهمي، يصعب الإمساك بكنهه وتبين دلالاته الحقة، أو إعطاء مفهوم دقيق وشامل له، وإن بدا للوهلة الأولى سهل التحديد وواضح المعالم.

وحول الدور العظيم لهذا المكون التقت أقوال الدارسين العرب والغربيين، إذ جعل جان إيف تاديي (Jean-Yves Tadie) من كل نص فضاء (11) ، بل إن صاحباً كتاب (L'univers du Roman) يقتنعان اقتناعاً عميقاً بكون الفضاء الروائي يرقى إلى درجة تمكنه من أن يكون سبب وجود رواية من

الروايات⁽¹²⁾ ، أو أنه يبدو أحيانا كما لو كان مؤلف الكتابة ذاتها، كما لو أنه عنصر البنية الأساس كما يصرح بذلك حسن نجمي.⁽¹³⁾

في حين يعتبره حسن بحراوي محددًا أساسًا للمادة الحكائية، وعنصرًا متحكمًا في الوظيفة الحكائية والرمزية للسرد، بل هو الهدف من وجود العمل كله⁽¹⁴⁾

ولما تساءل تاديي عن دلالة الفضاء الأدبي استرشد بكل من كاسير وجيلبير دوران (Gilbert Durand) بأنه بالمعنى الملموس: «غالبًا ما يكون على الصفحة تنظيمًا للبياض والسواد. أما بالمعنى الأكثر تجريدا فإنه يعني المكان الذي تتوزع فيه العلامات في آن واحد، وتتم العلائق العابرة(..) ثمة مفهوم ثالث(..) يجعل من الفضاء مكان الصور الإدراكي ثم التمثيلي. فإذا كان التصوير (La peinture) هو أثر الفضاء التمثيلي، فإن الأدب يدخل مسافة إضافية، نظرا لأن علامات اللغة تمثل التمثل»⁽¹⁵⁾

وفي قوله هذا إشارة إلى ما ورد سابقا، حيث إن الفضاء يتجلى ضمن كل نص تتجسد فيه الكتابة؛ أي إنه يتمظهر من خلال كل ما هو مجسد وملموس وظاهر للعيان، والتشكيل الطباعي بالمعنى الملموس والأكثر تجريدية هو فضاء، وهذا ما يتجسد في التعبيرين الأوليين لتاديي. من هنا يمكننا تبين أن أولى مفاهيم الفضاء وسماته كما تجسد عند الغرب يركز على الشخص بدءا ثم إنه يرتبط باللغة؛ فالفضاء الأدبي على خلاف فضاءات أخرى يتجسد بقوة اللغة وبفعلها، فهي سكناه ومن خلالها فقط يتشكل وينبني، وفي هذا تدعيم لما يراه النقاد الغربيون أمثال هنري

متران (Honri Metterron) وجيرار جنيت وجان فسجيربر (Jean weisgerber).

شحوب حضور مكون الفضاء الروائي في الدراسات النقدية المعاصرة:

على الرغم من الهالة القدسية التي يكتسيها الفضاء، إلا أنه ظل مكونا هامشيا ومقصيا ضمن حقل الانشغال الأدبي؛ ولعله السبب الأوحد الذي جعل حسن نجمي يكرس الباب الأول بفصوله الثلاثة ضمن كتابه (شعرية الفضاء السردية) (16) لإشكالية هذه المقولة وإبراز هشاشتها وشحوب حضورها.

إن الدراسات الغربية التي أقيمت حول الفضاء في الحكي لازالت في بداياتها، ولم تتطور بعد وترتق محاولة بناء أنموذج نظري متكامل، يمكن الركون إليه والاستناد عليه في تحليلاتنا للأعمال السردية، كما هو حال مقولة الزمن مثلا التي أرسى دعائمها جيرار جنيت، أو كما فعل فيليب هامون (Philippe Hamon) مع مقولة "الشخصية"، فكل ما قدم حول الفضاء الحكائي يظل مجرد اجتهادات متفرقة.

بل ذهب بعض الدارسين إلى نفي وجود قضية تتعلق بالفضاء أساسا، حتى وإن كانت هناك جهود تبذل في هذا المجال، حيث يصرح هنري متران بأن قضية "الفضاء" في الأدب لم يفرد لها إلا دراسات قليلة جدا، وأن محلي الحكي الأدبي شغلوا بالبحث عن منطق الأحداث ووظائف الشخصيات والزمن أكثر من انشغالهم

بالفضاء، إذ لا وجود لأنموذج نظري قائم بذاته حول الفضاء السردي، وما قدّم يعتبر مجرد مسار لم يستقم، مع مسارات أخرى مازالت قيد التهيء، ويشير هنا إلى دراسة غاستون باشلار (Gaston Bachelard) المعنونة بـ (poétique de l'espace) (شعرية الفضاء)، والتي يعتبرها من أكثر الأعمال حيوية. (17)

إن الخائض في طريق "الفضاء" سائر في درب شائك ووعر المسالك وغير واضح المعالم.. وهذه أولى العقبات. فالدراسات حول مقولة "الفضاء" قليلة عند المنتجين الأوائل لها كما صرح متران، وما قدّم لا يخرج عن كونه مجرد اجتهادات نظرية قد تزيد غموضاً؛ انطلاقاً من أنها تخضع لوجهات نظر متباينة من لدن أصحابها، ثم إن مصطلح "الفضاء" أساساً لم يشغل بال الدارسين انشغالهم ببقية المكونات السردية.

ويشير جان فسجربر إلى الصعوبات التي تعترض دارس الفضاء ومحله، ويصرح بعدم معرفته كيفية اشتغال المحيط الفضائي وجريانه في السرد. (18)

يثير فسجربر هنا إشكالية أخرى يطرحها الفضاء في الحكى؛ حيث إنه لا يلبث على تشكيل واحد ولا يتبع سبيلاً واضحاً، يتجلى من خلاله، حتى تسهل دراسته وتحليل جميع جوانبه.

ويشير حسن بحراوي في هذا الصدد إلى تصريح الروائيين أنفسهم بأنه لا توجد قوانين محددة وخطط معروفة تظهر بوساطتها المشاهد المكانية في العمل

السردية؛ إذ قد تتباين بين عشرات المشاهد، كما قد تجري أحداث كلها في مكان واحد مغلق مثل الغرفة. (19)

و يبدي ميشال بوتور رأيه قائلا: « وبحسب معرفتي لا وجود لرواية تجري حوادثها في مكان واحد منفرد، وإذا ما بدا أن الرواية تجري في مكان واحد خلقنا أوهاما تنقلنا إلى أماكن أخرى(..) إن حوادث الرواية تجري كلها مبدئيا في غرفة واحدة، غير أن القارئ ينتقل إلى أماكن أخرى من خلال وصف أثاث الغرفة وتاريخها». (20)

لا نظن أن رسم الفضاء وتشكيله من قبل الروائي أمر يدخل في حيز الإشكاليات ؛ باعتبار أنه منوط بالروائي بالدرجة الأولى وبقصديه وغايته من رسم أفضية معينة تتحرك فيها شخصياته لأداء وظائف يرتضيها؛ أي إن له الحرية المطلقة في رسمها كيفما يشاء؛ بغية تحقيق الغايات التي ينشدها.

وفي قولنا هذا تدعيم للملاحظة النبيلة التي وردت في كلام بورنوف وكيلي، حيث يحبس بعض الروائيين شخوصهم في أماكن مغلقة؛ تعميقا لحياتهم الباطنية، في حين تسبح شخصيات أخرى في عوالم الحرية والمغامرة والتجوال عبر القارات الخمسة، كما هو حال روايات ملقيل (Melville) وجول فيرن (Jules Verne) وبليز سوند (Blaise Cendrars) وكيسيل (Kessel). (21)

إننا نلمس ضيق النقد الغربي ذاته إزاء تهميش سؤال الفضاء وقصر نظره تجاهه في تصريح ميكائيل إيساشوروف (Michael Issacharoff) التالي: « إن

النقد عموما في دراسة الأشكال الروائية أقام الحجة على إصابته بقصر نظر تجاه الفضائية (La spatialité)(..) والحال أنه سبق أن لفتنا الانتباه إلى الدور الجوهري للفضاء في حساسيتنا المعاصرة».(22)

فعلى الرغم من كون الفضاء مكون رئيس في حياتنا، ولا يستطيع أحد إنكار دوره الفعال، إلا أن الكتابات الغربية ذاتها وقفت حائرة تجاهه، وسلمت بمحدودية فكرها تجاهه.

ويصرح حسن بحراوي أننا لا نكاد نعثر على دراسة مستقلة ووافية ضمن الأبحاث الشعرية أو السيميائية لمكون "الفضاء الروائي"، على الرغم من أنه لب العمل السردي وبؤرته الأساس، على خلاف "الزمن الروائي" الذي كانت له الأسبقية والخطوة.(23)

إن صلاية مقولة "الزمن" وشدة حضورها سبب رئيس في ضمور مقولة "الفضاء" ووهنها وإهمالها على نحو ما ذكرنا، وهذا الأمر يتجلى أيضا في الدراسات العربية؛ إذ إن مفردة "الزمن" كانت ولا زالت من المفاهيم العالقة في فكرنا العربي، والتي يمكن اعتبارها أحد الأسباب المغيبة لمكون "الفضاء".

وإذا كان هذا حال الزمن، لا بد أن نشير إلى إشكالية أخرى يطرحها الفضاء بعلاقته بتقنية "الوصف"، حين فرضت البنيوية ولفترة طويلة وضع العنصر الوصفي في درجة ذيلية وذهب الفضاء ضحية ذلك، حين نظر إليه

بوصفه مكانا، وبالتالي لم يكن ممكنا تصويره خارج المقاطع الوصفية في كل عمل روائي. (24)

إن النقد بصفة عامة- كما يقول جان فسجير- لم يشغل بالطريقة التي تقدم بها الرواية وضع الإنسان ضمن محيطه المادي، إذا استثنينا من ذلك العمل المتميز والرائد الذي قدمه السوفييتي يوري لوتمان والمعنون بـ (La structure du texte artistique) (25) والذي نوه به جميع المشتغلين بالفضاء.

وعلى الرغم من الجهود المبذولة لدراسة الفضاء، إلا أننا لم نتمكن من الإمساك بدلالة صريحة وشاملة للفضاء الروائي، إذ يظل الغموض يلف هذه المقولة وتعريفاتها، انطلاقا من تباين آراء الدارسين واختلاف تصوراتهم حول مفهوم يظل على الدوام صعبا وشديدا التعقيد.

على أن التعريف الذي يمكننا الخروج به من خلال ما ذكر سابقا هو أن هذا المكون يتمثل في كل ما هو مشخص على صفحات العمل، ويكون للطابع اللساني الذي يقبع في ظله خصيسته الأساس، كما أن المبدأ الرئيس الذي ينبني عليه هو التعارض، ثم إنه لا يتأسس إلا بوساطة ربطه بعناصر الحكي من أمكنة وأزمنة وشخصيات وأحداث، وإظهار الوشائج بينها جميعا.

ولا شك أن هناك أسبابا كثيرة تكاثفت، وجعلت الدراسات السردية تهمل مفهوم الفضاء الروائي وتهمله فلا تحفل به، على خلاف اعتنائها الشديد ببقية مكونات الحكى.

ولقد أوجد متران بعض الأسباب المغيية حين ربط بين الفضاء والمكان الذي لا يشتغل بمفرده؛ إذ لا قيمة له دون تعالقه ببقية المكونات السردية، بل إن متران يجعله عنصرا قاصرا إذا ما قرناه بالشخصيات والأحداث النشطة المتوثبة على الدوام، في حين أن المكان لا تقوم له قائمة دون أحداث وشخصيات فاعلة فيه. وسنحاول فيما يلي إيجاز القول حول إشكالية هذه المقولة:

- يكتنف مفهوم الفضاء ضبابية، يكون مردها اتساع مدلول هذه اللفظة، فالفضاء لا يشير إلى شيء محدد. إنها كلمة سائرة في الفراغ والخواء والمطلق واللامحدود واللانهائي. إنها تتواجد في كل شيء وتحيط بنا من كل الجوانب، لكنها لا تملك وجودا.
- تهيمش الدراسات الغربية لسؤال الفضاء أساسا، كما ورد في كثير من الأقوال السابقة.
- إن النقد الغربي نفسه لم يضع ضمن اهتماماته الطريقة التي يقدم بها الإنسان في محيطه الخارجي ضمن العمل الروائي.
- قلة الدراسات المنجزة حول مقولة الفضاء، وما تم تقديمه لا يعدو أن يكون مجرد اجتهادات أبانت تصورات مختلفة، لا تكفل إقامة نموذج

- دقيق نركن إليه، ولربما يكون هذا الأمر من أهم المعوقات لبناء شعرية للفضاء الروائي.
- عدم اعتماد الروائيين على خطة ثابتة وقانون واضح يسير وفقه العمل السردى، وقد كنا بينا رأينا في هذه النقطة.
 - انشغال السرديات بمكونات الحكى الأخرى وإغفال هذا المكون، وهذا ما صرّح به الدارسون الغربيون، إذ انشغلوا بمنطق الأحداث وأفعال الفواعل أكثر من اهتمامهم بالفضاء الذي نعهده دعامة الرواية الرئيس وقوامها الذي إذا أغفل أو نقي صار العمل مختلا.
 - كان ينظر إلى هذا المكون على أنه عنصر ثانوي، فهو ثابت وجامد ولا تقوم له قائمة دون تواجد عناصر الحكى الأخرى، وبخاصة عند ما ربط مفهوم الفضاء بالمكان.
 - صعوبة تحليل بنية الفضاء الروائي، وهذا ما تناسر على أوراق كثيرة في الكتابات الغربية، الأمر الذي أدى إلى إحداث مشكلات ومتاعب ترصد دارس هذا المكون وتطرح استنفهامات لم يوجد لها حل.
 - نرى أن طغيان مقولة "الزمن" لها دور فعال في إقصاء مقولة "الفضاء"، يضاف إلى هذا تعالق الفضاء بتقنية "الوصف" حين ربط مفهومه بالمكان.

و يبقى الفضاء دوماً - و كما ذكرنا آنفاً- مرتبطاً بشيء وهمي مطلق رمزي، إنه يحيط بالكل، بكل الأمكنة على الأقل، لكن لا نعثر له

على تواجد حقيقي، إنه يوجد في اللامكان، و هو كائن زئبقي لا يمكن الإمساك بكنهه، إنه المشكل الأبدي الذي يستعصى حله.

أصناف الفضاء الروائي:

مما تقدم ذكره نلاحظ أن هناك اختلافا ظاهريا و واضحا بين تصورات النقاد و الدارسين الغرب حول تحديد مفهوم مقولة الفضاء و يمكن أن نقول: إنها مقولة تتخذ أشكالا أربعة قدمها حميد لحداني في كتابه "بنية النص السردى" (26) سنقدمها فيمايلي مبدئين رأينا فيها:

1- الفضاء كمعادل للمكان: و يقصد به الحيز المكاني في الرواية و الحكى عامة. (27)

2- الفضاء النصي: و يعتبره فسجرب الموضع المادي الوحيد الموجود في الرواية، أين يجري فيه اللقاء بين وعي الكاتب و وعي القارئ. (28) و يعده جنيت أحد أشكال الفضاء في الدراسات الغربية، التي تعنى كثيرا بالوسائل البصرية من شكل الخطوط، و تنظيم الصفحة، و هيئة الكتاب في كليته. (29)

إن الفضاء النصي يتعلق بالصورة الشكلية للنص السردى، وتشمل الغلاف الخارجى للرواية و تنظيم فصولها و مطالعها و تشكيلات العناوين (30)، و قد فصل ميشال بوتور الحديث في مظاهر تشكيل فضاء النص في كتابه "بحوث في الرواية الجديدة" (31).

3- الفضاء كمنظور: و يتعلق على وجه الخصوص بالرؤية، أو منظور الكاتب الذي يقدم بوساطته القصة المتخيلة (32).

4- الفضاء الدلالي: وهو ما ارتبط في البلاغة الكلاسيكية بالصور، و يقول جنيت في شأن هذا النوع من الفضاءات ما يلي: « يتأسس الخطاب من سلسلة دوال حاضرة تقوم مقام سلسلة مدلولات غائبة، على أن اللغة الأدبية بخاصة لا تعمل بهذه الكيفية البسيطة، حيث إنها غير أحادية المعنى، إذ تبقى في حالة توالد و تضاعف مستمر، حيث قد تحمل اللفظة الواحدة دلالتين تقول البلاغة عن أحدهما أنه حقيقي و عن الآخر بأنه مجازي، هناك إذن فضاء دلالي يتأسس بين المدلول المجازي و المدلول الحقيقي»⁽³³⁾.

وبتعبير برنار فاليط (Bernard Valette) : « إن الفن من طبيعته أن يكون متعدد الدلالة»⁽³⁴⁾.

يمكن أن نشير هنا إلى أن جل الدراسات العربية، و هي تحاول تقديم تشكيلات الفضاء الروائي و أنواعه، تستقي الأنماط الأربعة التي أوردها لحمداني، على أننا نستغرب في بعض الأحيان تقسيمات معينة يضعها بعض الدارسين ؛ حيث يقسم محمد عزام ما يسميه بالفضاء المكاني إلى خمسة أنواع هي: الفضاء الروائي، و الفضاء النصي، و الفضاء الدلالي، و الفضاء كمنظور و الفضاء الجغرافي.⁽³⁵⁾ نلاحظ أن عزام يقرن بين الفضاء و المكان، و شبيه بهذا الأمر ما أورده حسن بحراوي في كتابه "بنية الشكل الروائي"، ثم أنه يضع الفضاء الروائي كصنف من أصناف الفضاء المكاني.

كما نعثر عند إبراهيم عباس في كتابه "الرواية المغربية" على العناوين التالية: الفضاء اللغوي و الفضاء النصي و الفضاء الجغرافي.⁽³⁶⁾

فهل هذه أنواع الفضاء الروائي؟ خصوصا أننا لا نكاد نعثر ضمن صفحات بحثه على مفاهيم الفضاءين اللغوي أو النصي، إذا استثنينا بعض الآراء المستقاة أساسا من كتابي بنية النص السردي للحمداي، و بنية الشكل الروائي لبحراوي.

ويعتبر لحداني أن ما يدخل حقيقة ضمن فضاء الحكي هما الشكلاان الأوليان (الفضاء كمعادل للمكان و الفضاء النصي)، في حين يدخل المفهوم الثالث ضمن مباحث الرؤية السردية، أما المفهوم الرابع فيتعلق بموضوع الصورة في الحكي. (37)

لقد أشرنا ضمن الصفحات الأولى، و نحن نتحدث عن دلالة الفضاء الروائي، في الكتابات الغربية، على أنه يرتبط أساسا بالطابع المجسد أو الملموس؛ أي إنه يلتصق بمجال مكاني و فضاء لفظي يوجد بوساطة الكلمات المطبوعة.

وعلى هذا الأساس سنقف مع لحداني في اعتبار الفضاء النصي أحد الأشكال الرئيسية المكونة للفضاء الروائي؛ باعتبار أن كل ما يدخل ضمنه يعتبر عناصر لسنية أساس، تحمل القارئ على فهم معين للعمل و تفصح عن دلالات كثيرة، إذا أجاد قراءتها و ربطها بعالم القصة المتخيلة.

ونقول الشيء ذاته عن الفضاء الجغرافي(الفضاء كمعادل للمكان)، الذي نعتبره أكثر المباحث التصاقا بمفهوم الفضاء الروائي، بل تفوق أهميته عندنا الفضاء النصي، إذ سنعتبره أول أشكال الفضاء الروائي و أشدها حضورا؛ لأنه

يتجسد كذلك ضمن مساحة مكانية، و يتعلق بخاصة بالأمكنة المرجعية و التخيلية التي يضمها النص.

على أننا سنعتبر الفضاء رؤية سردية (الفضاء كمنظور أو كبؤرة) أحد المباحث الأشد التصاقا بمقولة الفضاء الروائي، حتى و إن أشارت إليه جوليا كرستييفا (Julia Kristeva) كمبحث شائع يدخل ضمن الرؤية السردية والتي تعد إحدى مكونات الخطاب الروائي. إن أولى الأسئلة التي ينبغي أن نطرحها على أنفسنا: من يرسم أفضية الرواية و من يقدمها لنا ؟

لاشك أن للشخصيات الروائية علاقة وطيدة بالفضاء، أو ليست الساكنة فيه، والمنفعلة داخله و المكونة لفاعليته و حركيته، كما أن لها الحق في اتخاذ الرؤية والموقف الذي يلائم تصورهما و تفكيرها.

ونحن نشير هنا على وجه أخص للراوي، ذلك الكائن التخيلي الذي أبدعته أنامل الروائي، و الذي يأخذ الدور الأعظم ضمن المسيرة القصصية؛ حيث يتكفل برسم خطة نرى أن للكاتب فيها دورا عظيما، حيث ينشر بوساطته رؤيته الخاصة. إن الروائي – كما تقول كرستييفا- يقبع خلف الخشبة المسرحية يشرف على العمل ككل ليظل كل شيء تحت رقابته.⁽³⁸⁾

إن الفضاء يتأسس بوساطة وجهات نظر متعددة، بدءا من الراوي؛ بوصفه كائنا تخيليا، و من خلال اللغة التي يستخدمها في تشكيل أفضيته، و من بقية شخوص الرواية.⁽³⁹⁾

إن الفضاء الذي ستجري فيه حوادث القصة المتخيلة ينبني بالدرجة الأولى على وجهات النظر التي تنصهر جميعا لتشكيله و تشييده، و لا نظن أننا نستطيع

الحديث عن الفضاء دون الإشارة إلى وجهة النظر التي يجسدها الراوي من خلال إعلانه الانحياز إلى موقف ما، أو إلى رؤيته الشخصية القابعة في المكان الذي يدخل في رؤية الكاتب المكانية. إننا نؤمن بأن هذا النوع من الأفضية هو أداة تعبيرية قوية تفصح عن موقف الروائي مما يحيط به، فهو ينظر إلى الأشياء و ينظمها، انطلاقاً من قناعاته الفكرية و الجمالية معا.

على أن عبد المالك مرتاض يرى أن الروائي إذا أراد أن يعبر عن نظرية للوجود ليس عليه أن يذهب إلى مكون "الفضاء"، و يتخذ منه وسيلة لبلوغ هذا الهدف، بل إن له طرقاً متعددة لإبراز ذلك.⁽⁴⁰⁾

إن القراءة المتأنية و الدقيقة لعنصر "الرؤية" و تطبيقه على أي عمل روائي، يكشف الدور الهائل الذي يكتسبه في التعرف على موقف الروائي، بل إن الرؤية السردية أو التبئير كما يسميه جنيت و كما تعبر عنه ميك بال يمكن أن يتخذ صوراً متعددة: التبئير من قبل من؟ و على ماذا؟ ويدخل الفضاء كأحد المبارات الهامة التي تكفل دراستها كشف النقاب عن غوامض كثيرة.

ونعود إلى التشكيل الرابع للفضاء الروائي، و هو الفضاء الدلالي الذي يربط بقضية الصورة و المجاز، حيث إن الكلمة ليست معنى ثابت، إنما تغير معناها على الدوام كما يصرح ترفتان تودوروف (Tzvetan Todorov).⁽⁴¹⁾ منذ العصور الوسطى بأوروبا أخذت علوم البلاغة تهتم اهتماماً متزايداً بعنصر (الأسلوب) و خاصة صورة اللفظية (Figures).⁽⁴²⁾

ويقول جنيت في هذا الصدد: « إن كتابتنا لا تزال متشعبة بضروب الاستعارات و الصور، و إن ما يصطلح عليه بالأسلوب يظل مرتبطاً بآثار

المعاني الثانية، تلك التي تسمى في اللسانيات إبحاءات. فما يقال في ملفوظ يتضاعف دوما بما تقوله الكيفية التي يقال بها»⁽⁴³⁾

و يشير صاحباً كتاب "نظرية الأدب" إلى أن البنية في اللغة الشعرية تقوم على الصورة⁽⁴⁴⁾، و يعتبر فرانسوا مورو أن الصورة الشعرية هي طريقة للكلام، ومن أدوات الاستعارة و التشبيه والكناية و المجاز المرسل.⁽⁴⁵⁾

ولو عدنا إلى الأدب العربي لوجدنا أن المجاز «هو المعبر الأول الذي تلجه الصورة الشعرية مكتسية بالوان من تشبيه و استعارة و كناية»⁽⁴⁶⁾، و نعني بالمجاز «دلالة اللفظ على غير ما وُضع له في أصل اللغة»⁽⁴⁷⁾، في حين تعني الحقيقة «استعمال اللفظ في أصل وضعه في اللغة»⁽⁴⁸⁾.

إن ارتباط الصورة بالشعر أكثر من ارتباطها بأي فن أدبي آخر، و قد مثلت في المؤلفات النقدية الغربية «الخاصية الأساسية للغة الشعر»⁽⁴⁹⁾، أو هي «الجسر الذي يصل المتلقي بالقصيدة و الجناح الذي يحمله و يرتفع للالتحام بعوالمها»⁽⁵⁰⁾.

إن الصورة هي «المنبع الأساس للشعر الخالص»⁽⁵¹⁾، و بتعبير آخر يدل على تعاقبها الشديد بالشعر نقول: إن «الصورة في الشعر كالشمس في الحياة»⁽⁵²⁾.

لقد عمدنا إلى إيراد هذه المقولات؛ للتدليل على ارتباط موضوع الصور و المجاز بباب الشعر؛ إذ إنها تمثل جوهره، و تظهر براعة الشاعر بخاصة، عند توظيف أدوات متباينة من استعارات و تشبيهات و كنايات؛ لتحقيق أقصى درجات الجمال شكلاً و مضموناً؛ ليتم التواصل بينه و بين المتلقي.

أي إن مبحث "الصورة" شائع في مجال الشعر و صالح له أكثر، و لا نظنه يتعلق بالدراسات الحكائية، إذ نعتقد أنه من الصعوبة الإحاطة بهذا العنصر و تطبيقه على الفنون الحكائية بشتى صنوفها، بل على جنس أدبي طويل مثل الرواية.

ولا نكاد نعرثر ضمن الدراسات العربية على بحث مستقل يعنى بالفضاء الدلالي، إذ ظل على الدوام مبحثاً غامضاً وغفلاً لا تلتفت إليه الأقلام؛ للأسباب المذكورة آنفاً، و كنا قد اطلعنا في هذا الصدد على صفحات كتبها محمد سويرتي⁽⁵³⁾، حاول فيها عرض مفهوم الفضاء الإيحائي استناداً إلى ما أورده جيران جنيت، و أقام بذلك بعض التصنيفات لهذا النوع من الأفضية و هي: (الأصل الفضائي، و المجاز الفضائي، و الاستعارة الفضائية، و الكناية الفضائية بنوعيهما الرمز الفضائي و الإيماء الفضائي).

وإن كنا نثيب جهده هذا، إلا أن ما يطبع مفاهيم سويرتي عموميتها، و عدم تدعيمها بأمثلة توضيحية تبين عن دلالة التقسيمات التي وضعها، ينضاف إلى ذلك التقارب الشديد بين بعضها، إلى حد يصعب التفرقة بينها، كما أن بعض تلك التقسيمات إنما تدخل ضمن باب الشعر مثل الإيماء الفضائي.

إذا كان الفضاء الدلالي كما أشرنا سابقاً يتوجه صوب المعاني المجازية التي ينبثق عن المعاني الظاهرة الحقيقية، و إذا كان الشعر يستخدم هذا اللون في بناء صورة الشعرية بوساطة آليات مختلفة، فإننا نحسب أن الرواية تستعين بأساليب فنية في بناء عالمها.

إن الأفضية التي رسمتها يد الروائي لم تنشأ اعتباطاً، إنما لتحقيق غايات و أهداف يرتضيها صاحبها؛ أي إنها تكون محملة بشحنات دلالية و إحياءات رمزية، فهي بمثابة حيل لغوية يراد بها على الدوام المعاني البعيدة الخفية المستعصية، لا المعاني القريبة الظاهرة السهلة.

إن عمل الروائي سيثبه عمل الشاعر، و لكل واحد آلياته التي يبغى من ورائها بث خطابه للمتلقي، و يريد أن يخفي شيئا من الكلام و أن يطويه؛ ليتكفل القارئ فيما بعد من فك طلاسمه.

من هنا سيكون الفضاء الدلالي متناثرا في ثنايا العمل الروائي، و لا يمكن أن نخصه بعنصر دون الآخر، فلتوظيف بعض الأمكنة دون غيرها دلالات معينة، كما يحمل وشي بعض الأفضية الجغرافية مثلا ببعض الصفات رموزا خاصة، و على هذا الأساس سيكون الفضاء الدلالي حاضرا في كل ثنايا العمل، وسيكون الخفي الظاهر في الوقت نفسه، لا يمكن أن نموضعه في مكان معين، إنما سيتواجد بدافع القوة التي يفرضها الروائي عليه، و بالتالي سيُتضمن في دراسة الأفضية الثلاثة (الفضاء الجغرافي و الفضاء رؤية سردية و الفضاء النصي)، بل إن حضوره سيتجلى في تحليل علاقة الفضاء بعناصر الحكي الأخرى . و انطلاقا من هذا سنعتبر أن أقسام الفضاء الروائي ثلاثة نقدمها حسب الأهمية بالترتيب التالي:

1- الفضاء الجغرافي: و نراه السمة الأساس التي تطبع مقولة "الفضاء" و المكون الأكثر حضورا و تجسدا في العمل الروائي.

2- الفضاء رؤية سردية: و نعتبره أدنى درجة من المكون الأول، على أنه يكتسب أهمية بالغة في التعبير عن وجهات النظر و كشف الأفكار و الرؤى و القناعات.

3- الفضاء النصي: ونعده عنصرا هاما و مساعدا على استجلاء بنية الفضاء ككل، و كاشفا عن خصوصية الفضاءين السابقين، إذا أحسنا قراءته و وصله بهما.

و يبقى رأينا هذا مجرد وجهة نظر قابلة للقراءة، و يبقى الفضاء الروائي معها مقولة غامضة يصعب تحديد مفهوم دقيق لها؛ نظرا لتباين وجهات النظر، و تظل على الدوام مفهوما غفلا لا تلتفت إليه أقلام الدارسين، من هنا وجب التفكير مجددا في إعادة النظر في هذه التهمة المركزية و إعادة الاعتبار لها باستنهاض همم الدارسين و شحذ هممهم و أقلامهم لإعطائها حقها المنوط بها كحال بقية المكونات السردية.

الهوامش:

(1) حسن نجمي، شعرية الفضاء السردية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط2000، ص 32. (2) ينظر: محمد سويرتي، النقد البنيوي والنص الروائي "نماذج تحليلية من النقد العربي 2- الزمن- الفضاء- السرد"، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط. 2، (د.ت)، ص 76.

(3) ينظر: أكرم اليوسف، الفضاء المسرحي "دراسة سيميائية"، دار مشرق مغرب، دمشق، (د.ط)، 2000، ص 25.

(4) حسن نجمي، شعرية الفضاء السردية، ص 48.

- (5) المرجع نفسه، ص 12.
- (6) Gérard Genette, figures II, éditions de seuil, paris, 1972, p 44.
- (7) عبد الوهاب الرقيق، في السرد "دراسات تطبيقية"، دار محمد علي الحامي، تونس، ط1، 1998، ص 26.
- (8) منصور الدليمي، المكان في النص المسرحي، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1999، ص 22.
- (9) ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ت/ فريد انطويس، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 1982، ص 150.
- (10) عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية "بحث في تقنيات السرد"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص 157.
- (11) المرجع نفسه، ص 46.
- (12) Roland Bouneuf et Réal quellet, l'univers du Romans, presses universitaire de France, paris, 1972, p14.
- (13) حسن نجمي، شعرية الفضاء السردي، ص 46.
- (14) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي "الفضاء، الزمن، الشخصية"، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 1990، ص 33.
- (15) حسن نجمي، شعرية الفضاء السردي، ص 45، 46.
- (16) ينظر: المرجع نفسه، ص 11-97.
- (17) هنري متران، "المكان و المعنى"، مجموعة من الباحثين، الفضاء الروائي، ت/ عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، بيروت، (د.ط)، 2002، ص 135.
- (18) Jean weisgerber, l'espace romanesque, ed l'age d'homme, lausane, 1978, p 11.
- (19) ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 36.

- (20) ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ص 61.
- (21) Voir: Roland Bourneuf et Réal quellet, l'univers du Romans, p117.
- (22) حسن نجمي، شعرية الفضاء السردى، ص 58
- (23) ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 25.
- (24) حسن نجمي، شعرية الفضاء السردى، 70.
- (25) Jean weisgerber, l'espace romanesque, p 9, 10.
- (26) ينظر: حميد الحمداني، بنية النص السردى، ص 53-62.
- (27) المرجع نفسه، ص 53.
- (28) Jean Weisgerber, L'espace romanesque, p 173.
- (29) 46 Gérard Genette, Figures II, p
- (30) حميد لحمداني، بنية النص السردى، ص 55.
- (31) ينظر: ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ص 108-131.
- (32) حميد لحمداني، بنية النص السردى، ص 61.
- (33) Gérard Genette, Figures II, p48.
- (34) برنار فاليط، النص الروائي "تقنيات ومناهج"، ت/ رشيد بن حدو، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1999، ص 54، 55.
- (35) ينظر: محمد عزام، شعرية الخطاب السردى، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق، 2005، ص 71.
- (36) ينظر: إبراهيم عباس، الرواية المغاربية "تشكل النص السردى في ضوء البعد الإيديولوجي"، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط1، 2005، ص 215.
- (37) ينظر: حميد لحمداني، بنية النص السردى، ص 62.
- (38) المرجع نفسه، ص 61.
- (39) Jean Weisgerber, L'espace romanesque, p 13.

- (40) ينظر: عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 148.
- (41) ينظر: ترفتان تودوروف، مفاهيم سردية، ت/عبد الرحمان مزيان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2005، ص 84.
- (42) مجدي و هبة كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص 260.
- (43) Gérard Genette, Figures II, p43.
- (44) ينظر: رينيه ويليك و وارين أوستين، نظرية الأدب، ت/محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، (د.ط)، 1981، ص242.
- (45) ينظر: أحمد الطريسي، النص الشعري "بين الرؤية البيانية و الرؤيا الإشارية"، الدار المصرية السعودية للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، 2004، ص99.
- (46) خليل أبو جهجه، الحداثة الشعرية العربية "بين الإبداع و التنظير و النقد"، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1995، ص237.
- (47) طالب محمد الزوبعي و ناصر حلاوي، البلاغة العربية " البيان و البديع"، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، ط1، 1996، ص 64.
- (48) المرجع نفسه، ص 63.
- (49) جون كوهين، بنية اللغة الشعرية، ت/ محمد الولي و محمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، (د.ط)، 1986، ص 23.
- (50) غاستون باشلار، جماليات المكان، ت/ غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت، ط2، 1984، ص 18.
- (51) أحمد الطريسي، النص الشعري، ص 103.
- (52) عبد الإله الصانع، الخطاب الإبداعي الجاهلي و الصورة الفنية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1997، ص 13.
- (53) ينظر: محمد سويرتي، النقد البنيوي و النص الروائي، ص 101-108.